الكبد والصحة

الكبد ويسمّى بالقصبة السوداء معروف وهو في اللغة مؤنث ويجوز فيه التذكير . وقد اخترنا تذكيره في هذه المقالة لانهُ كذلك في لسان الجمهور فنخشى ان يقع التباس في فهم المعنى المراد اذا اشرنا اليه بالضمير المؤنث

عرف القدماء كثيراً من خواص الكبد . قال ابن سينا في كتابه الكبير المعروف بالقانون ما خلاصتهُ « ان الكبد هو العضو الذي يتم تكوين الدم . . . والدم بالحقيقة غذاء استحال الى مشاكلة الكبد . . . فانهُ يمتص الغذاء من المعدة والامعاء ويطبخهُ دماً ويوجههُ الى البدن ويوجه الثفلة الى الكليتين والرغوة الصفراوية الى المرارة والرسوب السوداوي الى الطحال» وكلامهُ على الكبد وادوائهِ مسهب جدًّا يملأ نحو ثلاثين صفحة من المقتطف وكثير منهُ غاية في الصحة

والمعروف الآن ان كل مواد الغذاء التي تمتصها المعدة والامعاء لتصير دماً تأتي الى الكبد مع ما فيها من المكروبات والمواد السامّة والفضول المختلفة فيرشحها ويطهرها ويتم طبخها وهضمها الى ان تصير دماً صالحاً فيرسلها الى القلب ليدفعها في الشرايين ويوزعها على اعضاء الجسم المختلفة لتغذيتها وتوليد القوة والحرارة فيها

وقد اطلعنا الآن على مقالة ممتعة في الكبد وادوائهِ للدكتور روس هتشنصن فاقتطفنا منها ما يأتي قال :

ما دام الكبد يقوم بعملهِ قياماً حسناً فاننا نهمل امرهُ حتى تكاد تنسى وجودهُ ولكننا اذا اكلنا طعاماً فاسداً وحولنا المعدة والامعاء الى بالوعة كثيرة الاقذار بالتهم وقلة الرياضة اتى الدم منهما الى الكبد حاملاً مواد الغذاء طيبها وفاسدها وعاد اليهِ من القلب حاملاً ما نزحهُ من الجسم من الفضول فيمر فيهِ كل ما في الجسم من الدم مرة كل نحو ١٥ دقيقة وهو يستطيع ان يعي سدس الدم كلهِ ولا بدَّ لهُ من الاهتمام بترشيح كل نقطة منهُ سواء كان وارداً من المعدة والامعاء او من سائر اعضاء الجسم ونزع ما فيهِ من الفضول والمكروبات وارسالها الى مصارفها الطبيعية بعد تحويلها الى مواد لا ضرر منها فهو من هذا القبيل اعجب اعضاء الجسم وافكرها عملاً واعلاها همّة

لكن الشر كثير التلوُّن فبعض المواد السامَّة يكون سمها زعافاً فيتعذَّر وجود ترياق لهُ وبعض الميكروبات يكون شديد البطش فلا يتعذر عليهِ الفتك بعادة الكبد نفسهِ وهذا سبب ادوائهِ المختلفة . وكان المنتظر ان تكون هذهِ الادواء اكثر عدداً واشد فتكاً مما هي لكثرة تعرُّض الكبد لها ولكنها لا تنال منهُ الاَّ نادراً لأن القرون الكثيرة التي مرَّت على نوع الانسان مرَّنت كبدهُ على النضال والتغلُّب على الادواء

والشائع ان الكبد ضعيف يسهل التغلُّب عليهِ فتنسب اليهِ آلام كثيرة لا شأن لهُ فيها وانما مصدرها المعدة او الامعاء وسببها سوء الهضم بدليل انهُ اذا أُخرج الطعام الفاسد حينئذٍ منها عاجلاً او آجلاً زال الالم الذي ينسب الى داء في الكبد وتحرَّك في الصفراء . ويحدث مثل ذلك اذا تناول المألوم شيئاً من مستحضرات قطران الفحم الحجري كالفيناستين والسيلسيلات لانها تصلح فساد الامعاء . وكل الادوية التي تفيد في الادواء المنسوبة الى الكبد انما فائدتها في تطهير المعدة والامعاء فتخفف العبء عن الكبد وتخفيف العبء انجع دواء لراحة المتعب

وللكبد ادواء مدهشة فان حجمهُ الطبيعي كنصف بطيخة صغيرة وثقلهُ نحو اقة او اكثر قليلاً ولكنهُ قد يتضخم حتى يصير كالوسادة الصغيرة ويبلغ ثقلهُ حينئذٍ ثلاث اقات الى خمس فلا عجب اذا نُظر اليهِ بالدهشة حينئذٍ وخيف منهُ الخوف الشديد ولا سيما اذا انتشر مرضهُ في الجسم كلهِ فصفَّر الجلد حتى بياض العينين اي اصاب صاحبهُ بذاء اليرقان

واليرقان من اوضح ادواء الكبد وسببهُ في الغالب شرب الماء الآسن واكل الطعام الفاسد او الملوث بالجراثيم المرضية او مرضٌ في الامعاء ناتج من شرب ذلك الماء واكل هذا الطعام. والمسكرات من اضر المواد بالكبد لانها تؤثر في المادة الدهنية التي فيهِ وتضعف مقاومتهُ للجراثيم المرضية

ومادة اليرقان تنتشر في الجسم كلهِ ولكنها لا تظهر واضحة الاَّ في الجلد واصلها من كريَّات الدم الحمراء فان هذه الكريَّات تتدثَّر من وقت الى آخر وتدفن فضلاتها في الكبد فيحللها وينتزع المادة الملونة منها ويصبُّها في المرارة فتجري مع الصفراء الى الامعاء وتخرج مع البراز ويجري بعضها الى الكليتين ويخرج مع البول فتلون البراز والبول بالوان مختلفة من الاحمر الى الاخضر فالبرتقالي فالاصفر ولذلك

نجد ان من يُضرب ضرباً مبرحاً يحمرُّ جلدهُ ثم يزرقُّ ثم يصفرُّ من تمزّق كريات الدم الحمراء حيث يقع الضرب وهذا التلوُّن ناتج من فعل الحديد الذي في الكريات الحمراء

فاذا اندثرت كريات الدم الحمراء لسبب من الاسباب باسرع مما يستطيع الكبد ان يرسل فضلاتها الى الامعاء والكليتين لتزح منها او اذا اصاب الكبد ما يضعفهُ عن القيام بوظيفته او اذا حدث الامران معاً في وقت واحد يسبب حمّى او مرض آخر مكروبي ولو كان زكاماً بسيطاً انتشرت المواد الملونة من الكريات الحمراء المندثرة في البدن وصفرت الجلد

وقد يصفرُّ جلد من يصاب بالانيميا لان كريات دمهِ الحمراء يتلف الكثير منها حينئذٍ فتنتشر مادتها في جلدهِ وتصفّرهُ ومن اسباب اليرقان ايضاً الزكام اليرقاني فانهُ يكون فيهِ مادة سامّة تتلف كريات الدم الحمراء وتحدث التهاباً في الكبد وتسد القناة الصفراوية ولذلك يسمّى بالزكام اليرقاني . ومن اعراضهِ الخاصة القيض وسوء الهضم وفقد الشهية للطعام لانهُ يتعذر حينئذٍ وصول الصفراء الى الامعاء لتساعد الهضم وتقوي الامعاء . ومن اعراضهِ ايضاً الصداع لان الصفراء تكون في الدم حيث لا داعي لها . ومنها الحكة في الجلد لان الهموغلوبين وهو المادة التي تلون الكريات الحمراء شديد الهيج حيث يصل اليهِ النور وهو سامٌّ ولكن الكبد يبطل ضرره

ومن اشكال الانيميا او فقر الدم شكل يكثر فيهِ تلف كريات الدم الحمراء لسبب مرضي حتى لا يبقى منها فيهِ الا ثلثها او اقل من الثلث فيصفرُّ الجلد او يخضرُّ من فعل الحديد الذي في الكريات التالفة وهذه الكريات تذهب الى الكبد وتخزن فيهِ واكثر حديدها فيها وهو نصف الحديد الذي في الجسم كلهِ وخزنها في الكبد لا يُقصد بهِ نزحها من الجسم بل حفظها هناك الى اليوم الذي يزول فيهِ السبب المرضي الذي يتلف كريات الدم وحينئذٍ يعود الجسم الى هذا الحديد المخزون ويتناولهُ من الكبد ولذلك يبقى الجسم على صفرتهِ في داء اليرقان لا تنفع فيهِ الادوية الحديدية الى ان يزول السبب المكروبي الذي احدث اليرقان من الانف والثة والمعوزتين او من حيث يوجد

فلليرقان سببان مباشران إما اندثار الكريات الحمراء باسرع مما يستطيع الكبد على نزحها من الجسم والتخلص منها او خلل في الكبد حتى يعجز عن نزح الكريات المندثرة . وقد يحدث هذان السببان المباشران بفاعل واحد اي بمكروب سام يتلف

الكريات الحمراء ويوقع الالتهاب في الكبد فتفسد القناة الصفراوية . ومن اعراض هذه الآفة سوء الهضم وفقد الشهية للطعام والقيض المسبب من عجز الصفراء عن الوصول الى الامعاء وهي لازمة هناك لتفتيه الامعاء وتساعد على الهضم ويحدث الصداع حينئذٍ من تكاثر الصفراء في الدم حيث لا داعي لوجودها . ثم تحدث حكة في الجلد لان بعض ما ينحل اليه هموغلوبين الدم مادة تهيج تهيجاً شديداً من وقوع النور عليها وهذه المادة يكفينا الكبد شرها

واهمية اليرقان تتوقف على اهمية العلة التي تسببهُ فاذا كانت زكاماً بسيطاً او اسهالاً خفيفاً فلا شأن لهُ لانهُ يزول بزوالها. وانجع دواء لهُ حينئذٍ تنظيف الامعاء بمسهل بسيط وتنظيف الكليتين بشرب الكثير من الماء النقي ولكن اذا كان سببهُ مكروب الحمى الصفراء فهناك الطامة الكبرى لان هذا المكروب يتلف كريات الدم الحمراء ويسبب القيء الاسود الحاصل من انحلال الدم ويسم الكبد . وبين هذين الطرفين اليرقانُ الحاصل من انسداد القناة الصفراوية بما يسمى بالحصاة الصفراوية . وهي في الحقيقة تطرُّف في النفع فانها ليست حصاة بحصر المعنى بل مادة شمعية او الكحول متجمد كاقراص الالكحول التي تستعمل الآن وقوداً بدل الالكحول السائل . وفي كل اجزاء النسجة الجسم شيء قليل من هذه المادة الشمعية ولا سيما في الدم حيث عملها وقاية كرياتهِ الحمراء من المكروبات ونحوها . فاذا انحلت كريات الدم ووصلت الى الكبد التقطها مع هذه المادة الشمعية المتصلة بها وجرت منهُ الى الصفراء واستقرت في المرارة والظاهر انها تكون قد سئمت السير فتلاقي عصا الفرحال ويطيب لها المقام. ويتفق في ساعة شؤم ان يتبعها الى هناك بعض مكروبات التيفويد او الاسهال فتحيط بهِ لتمنع ضررهُ وكلما وصل الى هناك جانب جديد من الشمع احاط بالذي قبلهُ والتصق بهِ اي تبتدىء الحصاة الصفراوية بالتكون وقد ثبت ذلك من شطر الحصوات الصفراوية فوجد في كل حصاة منها نواة من المكروبات ونحوها . وعليهِ فالحصاة الصفراوية تتكون في المرارة كما يتكون اللؤلؤ في البحر

فاذا كان المكروب حيًّا وفيهِ من النشاط ما يسبب التهاباً خفيفاً فيما حولهُ كثر رسوب المادة الشمعية عليهِ واذا كان هناك مكروبات كثيرة تكوَّن منها حصوات كثيرة. فقد عدوا منها في مرارة واحدة اكثر من الف حصاة صغيرة وهي المسماة رملاً . ولكن الغالب ان يكون عددها من خمسة الى عشرين واذا مات المكروب بعيد رسوب

المادة الشمعية عليه فقد تتكون حصاة واحدة ثم يكبر حجمها رويداً رويداً حتى يبلغ حجم الكرى واذا زاد التهاب المرارة ورسب شيء من الجير مع المادة الشمعية سهلت رؤيتها باشعة اكس

ومن غرائب الكبد ان الحصاة الكبيرة لا تتعب كالصغيرة لان التعب يتأتى من حركتها اذا حاولت الخروج من المرارة فاذا كانت الحصاة صغيرة وحاولت المرور في القناة الصفراوية فان هذه القناة ضيقة جداً فالحصاة تحاول توسيعها فينشأ عن ذلك نوبات الم لا تطاق . وقد تسد القناة الصفراوية حينئذٍ فتعود الصفراء الى الكبد وتنتشر منه في البدن وتسبب يرقاناً شديداً ولكن الغالب ان تتمكن الحصاة من الخروج من القناة الصفراوية الى الامعاء بعد ساعات او ايام من الالم المبرّح والقيء . ولكن قد يكون في المرارة حصوات اخرى فيتكرر الالم واذا كانت الحصاة كبيرة جداً حتى يستحيل مرورها في القناة الصفراوية طابت لها الاقامة في المرارة من غير تعب

والذين تنتابهم الآلام من الحصوات المرارية قلال جداً مع ان نحو تسع الذين فتحت رممهم بعد موتهم وجدت فيهم حصوات مرارية واكثر هؤلاء لم يشكوا في حياتهم منها . وظهر من الكشف الطبي بعد الموت ان ربع النساء اللواتي توفين متجاوزات السنة الستين كنّ مصابات بحصوات مرارية ولم يشكين منها قط . وهي في النساء ثلاثة اضعاف ما هي في الرجال

والظاهر ان كل ما يعيق خروج المبرزات من الامعاء يساعد على تولد هذه الحصوات لانهُ يسهّل على المكروبات الوصول الى الكبد ولذلك فالقبض من اسبابها . وقد تكون قلة الرياضة من اسبابها ايضاً ولذلك هي اكثر في النساء منها في الرجال . والمظنون ان المشد كان من اقوى اسبابها فاذا كان الامر كذلك وجب ان يقلّ تولدها بعد اهماله

ومن اشهر العلاجات التي تعالج بها هذه الحصوات المرارية شرب زيت الزيتون فانهُ يزيد افراز الصفراء بعض الزيادة ويلين العضلات فيسهل على الحصوات الخروج من القناة الصفراوية

ولكن اذا اشتد الالم وتعذر خروج الحصاة بفعل الطبيعة والعلاجات المعروفة لم يبقَ لاخراجها الاّ سكين الجراح . فاذا كان الجراح ماهراً في صناعته فانهُ يفتح

البطن ويصل الى المرارة وينزع الحصوات منها وقد ينزع المرارة نفسها ولا ضرر. ويقال ان الخطر من هذه العملية لا يزيد على ٥ في المائة. ويروى ان احد الجراحين عمل هذه العملية في اربعة آلاف شخص فمات ٣٩٠٠ منهم ولم تعد الحصاة تتكون الاَّ في ثلاثة منهم

قيل ان امرأة يونانية اصيبت بحصاة المرارة فذهبت الى ڤينّا منذ عشرين سنة لتعالج عند جراح مشهور بعد ان كابدت الاماً مبرحة عشر سنوات. فبشر عليها الجراح بالعملية لضعف جسمها وامرها ان تذهب الى كارلسباد لتشرب من مياهها وتستحم فيها فذهبت وبعد وصولها بيومين خرج منها ثلاث حصوات كبيرة جدًّا وفارقتها النوبات واستردت صحتها سريعاً. فطلب طبيب كارلسباد منها ان تعطيهُ احدى الحصوات تذكاراً ففعلت ومرَّت على ڤينّا في طريقها وهي عائدة الى بيتها وزارت الجراح الذي اشار عليها بالذهاب الى كارلسباد لتشكره على صنيعهِ واعطتهُ احدى الحصاتين الباقيتين. فاراها في اليوم التالي لتلاميذهِ واخبرهم بقصة هذه المرأة ثم قال لهم ان الفضل في اخراج هذه الحصوات ليس لي ولا لمياه كارلسباد بل للحالة السيئة التي فيها سكة الحديد بين ڤينّا وكارلسباد فان الهز العنيف الذي اهتزهُ جسم هذه المرأة اخرج الحصوات من مرارتها (١)

ورب قائل يقول كيف يعيش الانسان من غير مرارة اذا نزع الجراح مرارتهُ. والجواب اننا لا نعلم فائدة المرارة في جسم الانسان فانها صغيرة جدًّا لا تسع الاَّ نحو عشرين درهماً مع انهُ يفرز من الصفراء كل يوم نحو ٣٠٠ درهم وكل ما يعلم من امرها انها زق تجتمع فيهِ الصفراء بين هضم وهضم فاذا الصفراء تصب في الامعاء وقت الهضم ومن ثم لا يبقى داع لها فتسد المرارة الطريق وتجمع الصفراء فيها. ومنها ضرر اكيد لانها مباءة لتوليد الحصى الصفراوية ولا ضرر من نزعها

وبعض الحيوان كالفرس لا مرارة فيهِ وكذلك الوعل (المعز الجبلي) واما الغزال فلهُ مرارة. والظبي وهو متوسط بين الوعل والغزال لبعضهِ مرارة وبعضهُ

(١) بلغنا ان شاباً من تلامذة الجامعة الاميركية في بيروت كان مصاباً بالحصاة المرارية وكانت تؤلمه جداً ولم يشأ ان تخرج بعملية جراحية ثم اكثر من ركب الخيل في فرصة الصيف والجري السريع فخرجت الحصاة من مرارته

لا مرارة لهُ . ومن هذا القبيل الزرافة فقد يكون لها مرارة وقد تكون بلا مرارة . وللباشق مرارة والحمام لا مرارة لهُ . وكان القدماء ينسبون شراسة الباشق ووداعة الحمام الى وجود المرارة في الباشق وخلو الحمام منها

والصفراء من مصنوعات الكبد وهي سائل اصفر يسمى بخضرٌ شديدة المرارة او يصير عصارة معدية حامضة اذا عُرّض للهواء . وقد ثبت الآن ان جانباً كبيراً من الصفراء يذهب جزافاً وهو الذي يصب في المعى الغليظ عند اتصاله بالمعدة ويخرج مع البرزات . واذا مزجناها بالاطعمة في اناء لم نجدها اقل فعلاً في هضمها ولا في ازالة الفساد منها ومع ذلك فاذا امتنع وصولها الى الامعاء بواسطة الحصاة الصفراوية ساء الهضم وفسد الطعام . والسر في ذلك انها وان كانت لا تهضم طعاماً ولا تزيل فساداً لكنها اذا امتزجت بعصارة البنكرياس زاد فعل هذه العصارة ثلاثة اضعاف

وللصفراء فوائد اخرى وهي انها تساعد على امتصاص المواد الدهنية وتنبه عضلات جدران الامعاء للحركة فتسرع حركة الطعام المهضوم والفضول . واهم اعمالها انها تحرق الامونيا السامّة وتجعلها بولاً او غذاء للكليتين وتحوّل السموم المكروبية والنباتية الى مواد يسهل التخلّص منها . وتتناول فضلات اللحم ونحوه من المواد البروتينية والسموم التي في الامعاء وتصنع منها سكراً اي انها تجعل السمّ دسماً

وكل ما قيل عن ضرر السكر في داء البول السكري لا يبطل حقيقة مقررة هي ان السكر في الكبد من انفع مضادات الفساد واقوى الواقيات من السموم واذا خاف الاطباء ان يكون السكر قليلاً في الكبد وقت استعمال الكلوروفورم او الايتر او السلفرسان او غير ذلك من الادوية التي تعقبها نتائج سامّة احياناً حقنوا وريداً من اوردة المريض بمذوب سكر العنب وقاية لهُ . فعرف الاطباء الآن ان السكر ترياق عظيم النفع لكن الكبد عرف ذلك منذ قرون لا تحصى

والخلاصة ان التوقي انجع علاج في أدواء الكبد فاذا كان ماء الشرب نقيًّا والطعام خالياً من الشوائب وروّض الانسان جسمهُ بالحركة يومياً سار الكبد في عمله سيراً منتظماً وحوّل السموم الى وقود وترياق . انتهى بشيء من الاختصار والتصرّف . وعسى ان ينعم القراء نظرهم في هذه المقالة لما حوت من الفوائد الكثيرة العلمية والعملية